﴿*قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

خلاصةُ الحِجاجِ تقريرُ الوحدانيَّة وتحقيقُ الإيمان بالله

جاءت هذه الآية الكريمة لتُمَثِّلَ خلاصةَ ما تقدَّمَ من الحِجاج، وما تقدّم ممّا ينبغي أن يستفاد منه في رسوخ الإيمان باللّه تعالى والإسلام له سبحانه، فجاء ذلك على لسان رسول اللّه ﷺ مخاطبًا به النّاسَ جميعًا. فقوله: ﴿*قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ "جملةٌ معترضةٌ بين أدلّة الوحدانيّة بدلالة الآيات الكونيّة والنّفسيّة؛ ليَجروا على مقتضاها في أنفسهم؛ بأن يعبدوا اللّه وحده، فانتقَلَ إلى تقريرِ دليل الوحدانيّة بخبرِ الوحي الإلهيّ؛ بإبطال عبادة غير اللّه على لسان رسوله ﷺ؛ ليَعمَلَ بذلك في نفسه، ويُبلِّغَ ذلك إليهم فيعلموا أنّه حكمُ اللّه فيهم"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: جذر الكلمة هو (بين)؛ يقال: بانَ واسْتَبانَ وتَبَيَّنَ، والبَيان: الكشف عن الشّيء، قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: 39]، وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ﴾ [البقرة: 185]. والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، وسُمّي الكلام بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُه نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138][2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقَّنَ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ الرَّدّ الذّي يوبّخ به المشركين؛ إذ يقول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195.
(2) الراغب، المفردات: (بين).

رفضُ عبادةِ الأوثان وتأكيدُ التَّوحيد

تعالى لنبيِّه: قلْ - يا محمَّدُ - لهؤلاء المشركين بربّهم من قومِك، العادلين به الأوثانَ والأنداد، الَّذين يطلبون منك مشاركتَهم في عبادة آلهتهم وأوثانهم: إنّ اللّه ربّي وربُّكم وخالقي وخالقَكم ومالكَ أمورنا نهاني أن أعبدَ الَّذين تدعون من دونه، فلن أتَّبِعَكم على ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقُكم عليه، ولا أعطيكم محبَّتَكم وهواكم فيه. وإن فعلتُ ذلك فقد تركتُ محجَّة الحقِّ، وسلكتُ على غير الهدى، فصرتُ ضالًّا مثلَكم على غير استقامة[1]. والسَّببُ في ذلك: أنّ كلّ الدّلائل والبراهين الَّتي أكرمني اللّه بها - وهي دلائل التّوحيد - تشهدُ وتصرِّحُ بأنّ المستحقَّ للعبادة هو اللّه تعالى وحده. وإنّي بعدَ أن نهاني ربّي عن عبادة غيره أمَرَني بأنْ أُسلِمَ وجهي إليه بالعبادة والطاعة؛ إذ هو وحده ربُّ العالمين ومالكُ أمرهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآيةِ عن سابقتها:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿*قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن سابقتها ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لأنَّ الجملتين متَّفقتان في الإنشاءِ الطَّلبيِّ، ولأنّ الجملةَ الثّانيةَ مؤكِّدةٌ للجملة الأولى، وهذا ما يسمّيه البلاغيّون كمالَ الاتّصال بين الجملتين، ممّا اقتضى الفصلَ بينهما.

إخلاص العبادة لله تعالى طرحٌ لِما دونَهُ من معبوداتٍ باطلة

دلالةُ الأمر بـ﴿*قُلْ﴾:

عبادةُ غير الله فعلٌ خطيرٌ يوجبُ التَّحذير

قوله تعالى: ﴿*قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أمرٌ للنّبيّ ﷺ بأن يصرِّحَ ويُعلِنَ طرحَهُ لعبادةِ الأوثانِ برسالةٍ من عند اللّه؛ إبطالًا لعبادة غير اللّه بالقول الدّالِّ على التّحذير والتّخويف، بعدَ أن أبطَلَ ذلك بدلالةِ الحُجَّةِ على المقصود. وهذه دلالةٌ كنائيّة؛ لأنّ النّهيَ يستلزم التّحذيرَ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 356 - 357.
(2) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3715 - 3716.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195.

بيانُ المخاطَبِ بالأمر:

السّيرُ على نهج الحقّ في الإيمان والتّوحيد

المخاطبُ بالأمر في قوله تعالى: ﴿*قُلْ﴾ هو رسول الله ﷺ، ويأتي من بعده جميعُ أُمَّتِهِ السّائرةِ على النّهج الحقّ في الإيمان والتّوحيد.

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّدات:

الإخلالُ بالعبادة يَستوجِبُ التّنبيهَ لخطورةِ شأنِه

أفادَ حشدُ المؤكِّدات (إنّ)، و(الجملةِ الاسميّة)، و(المصدرِ المؤوّل) في قوله: ﴿*قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ تعزيزَ المعنى وتقويتَهُ، وتأكيدَ النّهي عن عبادة غير الله تعالى؛ فشأنُ العبادة خطيرٌ يوجبُ التّوكيدَ طلبًا لشدَّةِ التّنبيه.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

تنزُّهُ سيرةِ النّبيّ ﷺ عن عبادة الأصنام

في قوله: ﴿*قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تقدَّمَ المسندُ إليه - وهو ضميرُ ﴿إِنِّي﴾ - على الخبرِ الفعليِّ؛ لتقويةِ الحكم، ولتخصيصِ ذاتِه ﷺ بهذا النّهي دونَ تشريكِهم في ذلك الغرضِ الَّذي تقدّم، مع العلم بأنّهم منهيّون عن ذلك؛ وإلّا فلا فائدةَ لهم في إبلاغ هذا القول، فكان الرّسول ﷺ من حين نشأتِه لم يسجدْ لصنم قطّ، وكان ذلك مصرفةً من الله تعالى إيّاه عن ذلك إلهامًا إلهيًّا إرهاصًا لنبوّته[1].

غرضُ إسنادِ النَّهي إلى الرّسول:

التّعريضُ بالمشركينِ للتّفكُّر في عبادتهم

في قوله: ﴿*قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقَعَ النَّهيُ له ﷺ لمّا جاءه الوحيُ والهدي من ربِّه تعالى[2]، والمقصودُ مِن إسناد النَّهي إلى الرّسول ﷺ التّعريضُ بنهي المشركين، فالقصدُ من ذلك الأمرِ التّبليغُ لهم، والمعنى: فإذا كنتُ أنا منهيًّا عن ذلك فتأمَّلوا في شأنكم واستعملوا أنظارَكم فيه[3]. وهو في الوقت ذاتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195 - 196.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 568.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

تعليمٌ للَّذين يدعون إلى الله أنْ يقولوا مثلَ ذلك؛ ليكونَ أسلوبًا ومنهجًا في حِجاج المشركين.

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿نُهِيتُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

تعظيمُ النَّهي الإلهيّ وشدَّةُ الاهتمام به

بُنِي الفعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ للنّائبِ للتّعظيم؛ لظهورِ أنّ النّاهي هو الله تعالى؛ بقرينة مقام التّبليغ والرّسالة[1]. ونُكتة ذلك تعظيمُ مصدر النّهي؛ والإشعارُ بأنّ الأمر عظيمٌ يقتضي شديدَ الاهتمام. ومعنى ﴿نُهِيتُ﴾: ممّن لا ناهيَ غيرُه - وهو (الله) - نهيًا عامًّا ببراهينِ العقل، ونهيًا خاصًّا بأدلَّةِ النّقل[2]؛ أي: صُرِفْتُ وزُجِرْتُ بأدلَّةِ العقل والسّمع عن عبادةِ ما تعبدون من دون الله[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدر المؤوَّلِ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾:

للتَّوحيد أثرٌ بَهيّ في السَّعادةِ والرُّقيّ

دلَّ المصدر المؤوَّلُ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ على الاستقبال، فمِن شأن النّاصب أن يُخلِّصَ المضارعَ للاستقبالِ[4]. فمَن جاءتْهُ الرّسالةُ فعليه أن يؤمنَ بالله وحده، وأنْ لا يعبدَ إلّا الله، ومَن أعرَضَ فعبَدَ من دون الله ما لا يضرُّ ولا ينفع فإنّما هو من المشركين. فلا بدَّ أنْ يتطلَّعَ النّاسُ إلى مستقبلِ حياتهم على أن تكون مضمونةً بالتّوحيد والاستعانة بالله وحده، وهذا سرٌّ عظيمٌ من أسرار السّعادة والتّوفيق والرُّقيِّ.

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه:

الَّذين يعبدون الأصنام محلُّ استهجان

التّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ للتَّعريف بآلهتِهمُ الَّتي يعبدونها من دون الله، أو يدعونها طلبًا للرّزق والعون، حيث أهَّلوهم لأعلى المقامات، فعبَّر عنهم إرخاءً للعنان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.
(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/ 508.
(4) المُبرّد، المقتضب: 2/ 11، والسّيوطي، الهمع: 2/ 6.

بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾[1]، فجاء هذا الأسلوبُ استهجانًا للتّصريح بأسمائهم؛ فضلًا عن إرادة عموم ما يدعون؛ ممّن يدعونهم آلهةً من دون الله لا يملكون لهم رزقًا ولا نفعًا.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ لجماعة العقلاء، وقد يُستعمل لِما يُنَزَّلُ منزلةَ العقلاء كما في هذا الآية؛ إذ أُنزِلَ الأصنام منزلةَ العقلاء. وفيه تعريضٌ بالكافرينَ؛ إذ أنزَلوا ما لا يَعقِلُ منزلةَ العاقل.

بلاغةُ المجازِ في التّعبير عن العبادةِ بالدُّعاء:

العلاقةُ بين الدُّعاء والعبادة سببيَّة

الدّعاء: النّداءُ، وطلبُ الخير، أو دفع الضّرّ من الأعلى، وإنّما يكون عبادةً إذا كان في أمرٍ وراءَ الأسباب المسخّرة للعباد الَّتي ينالونها بكسبِهم لها واجتهادهم فيها وتعاونهم عليها، فإنَّ ما نعجزُ عن نيله بالأسباب المسخَّرة لنا لا نطلبه إلّا من الخالقِ المُسخِّر للأسباب[2]. ومن هنا فمعنى الدّعاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ يجوزُ أن يكون على ظاهر الدّعاء، وهو القول الَّذي تسأل به حاجةً، ويجوز أن يكون بمعنى (تعبدون) كما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾، فيكون العدولُ عن أن يقول: (أن أعبُدَ الذّينَ تعبدون) تفنُّنًا[3]. وفيه مجازٌ مرسلٌ علاقته السَّببيَّة، لأنَّ الدّعاء سببُ العبادة[4]. ويمكن أن تكون العلاقةُ الجزئيَّةَ؛ لأنّه يكون مُضمَّنًا في عبادةٍ وجزءًا منها.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُونَ﴾:

المؤمنون لا ينفكّون عن الدُّعاء والعبادة

يفيدُ المضارعُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الدّلالةَ على الحال والاستقبال مع التَّجدُّدِ والاستمرار، فيكونُ الخطابُ مستمرًّا إلى قيام السّاعة؛ ليشملَ جميع أولئك الَّذين يدعون من دون الله.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.
(2) رشيد رضا، المنار: 7/ 378.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَدۡعُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله: ﴿نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهو العائدُ على الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ونكتةُ الحذفِ شمولُ كلِّ دعوةٍ من دون الله مهما كانت؛ لأنَّ التَّوجُّهَ للدّعاء إلى غير الله شركٌ، ثمَّ ما يتبعُ الدّعاءَ من العبادة والرّكوع والسّجود لغير الله. وهناك نكتةٌ أُخرى للحذف، وهي تحقيرُ آلهتهم الَّتي يعبدونها من دون الله وتسفيلُها؛ إذ تعالى النَّظمُ الكريمُ عن أنْ يُكرِّرَ ذكرَها لدناءَتِها وحقارتِها.

توسيعُ مفهومِ الشّرك والعبادة

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ للتّوكيد؛ لتستغرقَ كلَّ موجود، فلا تهاوُنَ في التّوحيد ولا مُسامحةَ في الإشراك بالله، قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحجّ: 31].

لا مسامحةَ ولا عفوَ في الإشراكِ بالله وعبادةِ أحدٍ سواه

وعلى القولِ الرّاجحِ تكونُ ﴿مِن﴾ حرفَ جرٍّ أصليًّا، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بمحذوفٍ حالٍ من العائدِ المقدَّر، وهو مفعول ﴿تَدۡعُونَ﴾، والتَّقدير: (نُهيتُ أنْ أعبدَ الَّذين تدعونهم معبودين مِن دون الله)، وفي ذلك تحقيرٌ لهم وحَطٌّ من شأنهم؛ بوَصْفِهم بالدّون، وفيه ما فيه من الاستهزاءِ بهم.

معنى الدّونيَّة، ونوعُ الإضافةِ فيها:

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناه: من غير الله، وتُستعمَلُ للإشارةِ إلى غير الله في العبادة والخضوع، فهذا هو الكفر بالله بعبادة غيره؛ لأنّه ليس محلًّا للعبادة أو الاستعانة، فالله وحده هو الرَّبُّ والإله الَّذي يُعبد.

الكفرُ بالله هو عبادةُ غيره والخضوعُ له

وفي سياقِ الآيات القرآنيَّةِ تأتي هذه العبارةُ للإشارة إلى عبادةٍ أو استعانةٍ بغير الله، كالأصنام أو المخلوقات، وهو ما يُعتبَرُ شركًا

باللّه، وتعني كذلك: كلَّ ما هو خارجٌ عن نطاق التّوحيد، سواءٌ أكانت تلك المعبوداتُ آلهةً أم شياطينَ، أم أيَّ مخلوق يُعبَدُ أو يُتَّخذُ شريكًا للّه. وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إضافةٌ حقيقيَّةٌ؛ إذ دلَّ على سفولهم بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

معنى ﴿لَمَّا﴾:

﴿لَمَّا﴾ كلمةٌ تفيدُ اقترانَ مضمونِ جملتينِ تشبهان جملتَي الشّرطِ والجزاء؛ إذ اقترَنَ هنا النّهيُ عن عبادة غير اللّه بمجيءِ البيّنات، ولذلك تسمّى (لمّا) التّوقيتيَّةَ، وحصول ذلك في الزّمن الماضي، فقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ توقيتٌ لنَهْيِهِ عن عبادة غير اللّه بوقتِ مجيء البيّنات؛ أي: بيّناتِ الوحي فيما مضى، وهو يقتضي أنَّ النّهيَ لم يكن قبلَ وقتِ مجيءِ البيّنات[2].

اقـتـرانُ الـنّـهـي بمجيءِ البيّنات

نكتةُ تذكيرِ فعل المجيء مع ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾:

التَّذكير والتّأنيث في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ يعتمدان على السّياق لبيانِ دقّة المعنى، فيؤنَّثُ إذا كان المرادُ بالبيّناتِ الآياتِ الدّالَّةَ على صدق النّبوّات، ويُذكَّرُ إذا جاءت في سياق الأمر والنّهي؛ أي: من بعدِما نُهوا عن عبادة غير اللّه. فالبيّناتُ هنا تأتي بمعنى الدّين بما فيه من الأوامر والنّواهي، وهي دائمًا تأتي في سياق الحديث عن الرّسول وأمّته؛ لأنّ الرّسول ﷺ آتاه اللّه القرآنَ المتضمِّنَ للتّشريع من الأوامر والنّواهي، فقال: ﴿جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ بالتّذكير.

المقصودُ ببيّناتِ الـقـرآنِ الأوامـرُ والنّواهي

نكتةُ الإتيانِ بالمجيء ماضيًا:

عُبّرَ بالماضي (جاء) في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مجيءِ الدّين واكتمالِه بأوامره ونواهيه؛ ممّا نزَلَ على محمَّد ﷺ؛ إذ تضمّن التّشريع ما هو بمثابة المعجزات الّتي لا يأتي بمثلِها

اكتمالُ التّشريعِ بـمـا يـحـقّـقُ الإعجاز

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

البشرُ، وإنْ اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

معنى (أل) في ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

دلَّتْ (أل) في لفظةِ البيّنات في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَتْهُمْ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ على العموم والشّمول، فالبيّنات الَّتي هي الأوامرُ والنّواهي في الإسلام دلَّتْ جميعُها على الإيمان باللّه وحده وعبادته ودعائِه وسؤالِه، والكفرِ بما سوى ذلك من الآلهة الَّتي أشركوا بها فكانوا يدعونها ويعبدونها. وقولُه: ﴿جَآءَتْهُمْ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: الآياتُ المؤيِّدةُ لأدلَّةِ العقل المنبِّهةُ عليها؛ فإنَّ الآياتِ التّنزيليَّةَ مُفسِّراتٌ للآيات التّكوينيّة الآفاقيّة والأنفُسيَّة[1].

جميعُ الأوامر والنّواهي في الإسلام من البيّنات

بلاغةُ المجاز في إسنادِ المجيء إلى ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَتْهُمْ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ أسنَدَ المجيءَ إلى غير فاعله ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والَّذي جاءَ بالبيِّناتِ حقيقةً هو اللّه ﷻ، أنزَلَها على رسول اللّه ﷺ، وعلاقةُ هذا المجازِ السَّببيَّة؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي أمر بمجيئها.

البيّناتُ أفعالُ اللّه سبحانه وأقوالُه

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَتْهُمْ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّهِمْ﴾ للابتداء؛ فمصدرُ الآيات ومُبتدَؤُها كلِّها من اللّه تعالى، وهي أفعالٌ من أفعاله سبحانه.

صدورُ الآيات ومبتدؤُها من الله سبحانه

غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّة وإضافتِه إلى ضمير المتكلِّم:

قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَتْهُمْ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جاءَ على لسانِ رسولِ اللّه ﷺ، فهو المتكلِّمُ، ولذلك عبّرَ بقوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: المُربّي لي تربيةً خاصَّةً هي أعلى من تربيةِ كلِّ مخلوقٍ سواي[2].

تربيةُ الرُّسلِ ربّانيَّةٌ تناسبُ علوَّ مقامِهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 336.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.

وفي التَّصريحِ بلفظِ ﴿رَّبِّي﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ تربيةً للمهابة في نفوس المعرَّض بهم؛ ليعلموا أنّ هذا النّهيَ ومجيءَ البيّنات هو من جانب سيِّدِه وسيِّدهم، فما يَسَعُهم إلّا أنْ يطيعوه، ولذلك عزَّزَهُ بإضافة الرَّبِّ إلى الجميع في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربِّكم وربِّ غيركم، فلا مُنصرَفَ لكم عن طاعته[1].

وعمومًا؛ فإنَّ التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة اقتضاه ما ذُكر من الآيات البيّنات في الخلق والتّقدير، فالرّبوبيّةُ حقيقتُها: أن تؤمنَ بأفعالِ الله مثلِ الخلق، والرّزق، والإحياء والإماتة، ونحو ذلك، وهذا ما تعرَّضَتْ له الآياتُ السّابقة، فذكرتْ خلقَ الأرض والسّماء، وأنَّهما قرارٌ للحياةِ عامَّةً وللنّاس خاصَّةً.

الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾:

إلهيَّةُ البيِّناتِ توجِبُ العملَ بها

قوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ متعلِّقٌ بحالٍ محذوفةٍ من ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: إنَّ تلك البيّناتِ مصدرُها من الله ربّي وربّ النّاس جميعًا، فما عليّ إلّا الإيمانُ بالله والعملُ بما جاءني من البيّنات والهدى.

توجيهُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

الإيمانُ بالله والانقيادُ لشرعه من الواجبات

الواوُ في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ واوُ العطف، وقد وصَلَ بين هذه الجملة والَّتي سبقتها؛ لأنَّ الجملتين خبريَّتان، فحقَّقَ هذا الوصلُ الاتِّصالَ بينَهما؛ لأنَّ المقصودَ إشراكُ الثّانية في حكم الأولى، ومن حيث المعنى تصبُّ كلتا الجملتين في غرضٍ واحد هو النَّهيُ عن عبادةِ غيره والأمرُ بعبادته سبحانه، فالنَّهيُ عن عبادة ما يدعون من دون اللهِ مآلُهُ الأمرُ بوجوب الانقيادِ لله ربّ العالمين.

نكتةُ بناء فعلِ الأمر لِما لم يُسمّ فاعلُه:

في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ جاء فعلُ الأمر لِما لم يُسمَّ فاعلُه، وذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

لتعظيم الآمر، فالآمرُ معروفٌ وهو الله تعالى، وأُخفيَ ذكرُهُ تعظيمًا لشأنه سبحانه، ولأنّه ذكر قبله: ﴿مِن رَّبِّي﴾، فأخفى التّصريح بالآمرِ لوجود ما يدلُّ عليه.

إخفاءُ الفاعل لتعظيم الآمر

بلاغةُ الطِّباق بينَ ﴿نُهِيتُ﴾ و(أُمرت):

دلّ طباقُ الإيجابِ بين كلمتي ﴿نُهِيتُ﴾ و(أُمِرْتُ) في قوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ﴾ على شمولِ تشريعات الإسلام الّتي هي البيّنات المذكورةُ في الآية الكريمة بقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ بينَ أمرٍ ونهيٍ. وإنّما ذكر هذه الأحكامَ من الأمر والنّهي في حقّ نفسه؛ لأنّهم كانوا يعتقدون فيه أنّه في غايةِ العقل والكمال، ومن المعلوم بالضّرورة أنّ كلَّ أحدٍ لا يريدُ لنفسه إلّا الأفضلَ الأكمل، فإذا ذكَرَ أنَّ مصلحته لا تتمُّ إلّا بالإعراض عن غير الله، والإقبال بالكلّيَّة على طاعة الله ظهَرَ به أنّ هذا الطّريقَ أكملُ مِن كلِّ ما سواه[1].

فـي النّـهـي والأمـر شمولٌ لتشريعات الإسلام

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أُسْلِمَ﴾:

دلَّ الفعلُ المضارع المنصوب في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ على الحاضر والمستقبل، فيكون إسلامي مستمرًّا ما دمتُ حيًّا، وهذا أمرٌ للرّسول ولأمَّتِهِ جميعًا. ومعنى الأمرِ بالإسلام: الأمرُ بالاستقامة والانقياد[2]. وفي ذلك تعريضٌ بهم أنّهم ليسوا على استقامة.

الأمر بالإسلام إلى الله والانقياد إلى ما شرّع

معنى اللّام في قوله: ﴿لِرَبِّ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي لامُ الاختصاصِ أو الاستحقاق، فيكون إسلامُ النّاس خالصًا لله تعالى مختصًّا به دون سواه، فهو مالكُهم سبحانه، ومقدِّرُ أقدارِهم وأقواتهم. فلا يكونُ إسلامي إلّا لربِّ العالمين، ولا يصحُّ إسلامُ أحد من الخلق إلّا له سبحانه؛ لأنَّه هو المستحقُّ الأوحدُ للعبادةِ والانقيادِ لأوامره سبحانه.

إسلامُ النّاسِ هو للهِ مالكِهم سبحانه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 74.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 219.

نكتةُ تكرارِ (رَبِّ العالَمِينَ):

قدرةُ الخالق في تحقيقِ التّكامل الكونيّ وحماية الحياة

تكرارُ صفةِ (رَبِّ العالَمِينَ) لنكتةِ أنّ سياقَ الآية يتناولُ تحقيق البيئةِ الملائمةِ للحياة عمومًا ومنها حياة النّاس وتحقيق حمايتها، وهذا لا يكون إلّا بالتّكامل البيئيّ من جميع الأحياء والمخلوقات النّباتيّة، والحيوانيّة، والعناصر، والجمادات، والمياه، والهواء، والغازات وغيرها، فلفظُ الرَّبِّ دلَّ على أنّه وحده الرّبُّ الخالق الفاطر، الضّامن لديمومةِ هذه الحياة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»